الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ : ٢٤ فبراير ٢٠٠٥

مـــاذا وراء مصـــرع الحـــريـــري؟

إن كل الأطراف تدين مصرع الحريري.. فلنمسك الخيط من بدايته.. وبدلا من أن يكون أوله هو «من المسؤول عن قتل الحريري؟».. يكون الحيلولة دون تعميق التناقض السوري- اللبناني.. والوقوف سدا في وجه العودة الى الحرب الأهلية

محمد السعيد أحمد

مقتل رفيق الحريري يفتتح مرحلة جديدة في صراعات الشرق الأوسط.. انه ينبئ بأن الصراع الأكثر حدة (حتى لو لم يكن معلنا بصفته الأكثر حدة.. وحتى لو لم يكن الأكثر حدة من الوجهة الموضوعية) انما هو صراع بصدد أن يبلغ حدا خطيرا للغاية بين سوريا ولبنان.

فها هو أبو مازن، في حديث لـ «نيويورك تايمز» يقول إن الحرب مع «اسرائيل» في سبيلها الى أن تتلاشى، في اليوم نفسه الذي قتل فيه الحريري، على اثر عملية ارهابية مروعة لم يكن لها نظير منذ نهاية الحرب الأهلية اللبنانية.. لقد تبنت منظمة مجهولة أطلقت على نفسها اسم «النصرة والجهاد» ارتكاب الجريمة، والغريب في هذا الصدد أن تستطيع منظمة لا ماضي ارهابيا معروفا لها تنفيذ عملية في خطورة ما جرى.. فنحن بصدد اسم مستعار.. ومعنى ذلك أن الفاعل الحقيقي حريص على اخفاء هويته.. والعملية من الخطورة بحيث انها تهدد بانتشار حالة «عبثية» على اتساع المنطقة برمتها.. نحن لم نعد بصدد اضطرابات في العراق، بمعزل عن الاضطرابات في فلسطين، ذلك بأن لكل من القطرين خصائص متميزة لاضطراباته، بل نحن مهددون بامتداد الاضطرابات الى الدول المجاورة، وبحرب شعواء تعم الجميع.

الكلمات تفقد مدلولاتها

ما وصفه أبو مازن بحالة هي اقرب الى «السلام» هو في حقيقته عين الحرب.. والتهدئة مع «اسرائيل» أصبحت مبررة بحجة أن شارون قد غير من لغته!.. باتت الكلمات تشير الى نقيض معانيها.. وقد انقطعت الصلة بين الكلمة ومضمونها.. وبالتالي تعذر التعامل مع مفردات السياسة، وهذا تكريس للعبثية على نحو غير مسبوق!

ثم ليس تفجير الأزمة بين سوريا ولبنان مجرد تكرار لما شهده لبنان طوال مرحلة الحرب الأهلية في السبعينات والثمانينات، بل ينطوي على ما هو اخطر.. فلقد طلبت المعارضة اللبنانية استقالة الحكومة، وتألف في هذا المطلب بيار جميل الزعيم «الماروني» اليميني، ووليد جنبلاط الزعيم الدرزي «اليساري». ان قوى المعارضة – مؤتلفة– قد تكون أقوى من الائتلاف الحكومي بعد حادث اغتيال الحريري.. فكيف تجري مواجهة هذه المعضلة العويصة؟.. الشيء المؤكد أن المستقبل سيشهد مرحلة ثالثة بعد تاريخ مؤلف من مرحلتين متميزتين، مرحلة أولى –سابقة على اتفاقية الطائف– شهد فيها لبنان حربا أهلية بالغة الوحشية، ومرحلة ثانية –بعد توقيع الاتفاقية– كان بطلها رفيق الحريري، بصفته قد ركز جهوده كلها، في سنوات رئاسته للحكومة، على اعادة اعمار لبنان وازالة آثار الحرب.. والجدير بلفت النظر أن هذه المرحلة الثالثة –المستقبلية – لن تكون فقط عودة الى المرحلة الأولى، لاستحالة نشوب حرب أهلية جديدة في لبنان تظل بمعزل عن بقية الدول في المنطقة، وبضرورة انعكاس ذلك على العلاقات بين سوريا ولبنان بوجه خاص.. وفي النهاية، لا عودة للمرحلة الثانية، مرحلة اعادة اعمار لبنان، بصورته السابقة.

محاور جديدة محل القديمة

لم يكن الحريري احد أبناء النخب اللبنانية المنتمية الى البيوتات الكبيرة، التي تهيمن على الطوائف اللبنانية المختلفة «موارنة، وسنة، وشيعة، ودروز، الخ».. بل هو من اصل متواضع، رحل في شبابه الى السعودية، وقام بأعمال مقاولات في المرحلة التي ارتفعت فيها أسعار البترول عقب حرب أكتوبر/تشرين الاول وكان له نصيب كبير في اعمار المجتمعات الخليجية الغنية بمستودعاتها البترولية.. الأمر الذي مكنه من جمع ثروة تجاوزت المليار دولار.. وقد خصص جزءا منها لمشروعات عامة نهضت بدور محوري في عمليات اعادة البناء.

وهذا يطرح سؤالا: من صاحب مصلحة في اغتيال الحريري؟.. هل يصلح مقياس «المصلحة» نهجا لتحديد الخريطة الجديدة للمواجهات والتحالفات في المنطقة؟.. هنا ينبغي أن نميز بين أمرين.. فهناك صراعات قائمة لأسباب «موضوعية»، بمعنى أنها تعكس مصالح متناقضة يتعذر غض النظر عنها.. وهناك صراعات قادمة لأسباب «ذاتية»، بمعنى أن المصالح لا تتعارض بالضرورة، بل منظور لها على أنها قابلة بجهد رجل السياسة للتسوية.. ومع ذلك، فمن الممكن أن تكون بعض التناقضات «الذاتية» أكثر حدة من التناقضات «الموضوعية»، رغم أن «الموضوعية» هي التناقضات المنظور لها على أنها الأساسية.

على سبيل المثال.. ثمة صراع بين لبنان و«اسرائيل»، وثمة صراع أيضا بين لبنان وسوريا.. ومن المؤكد، في المفهوم العربي، أن التناقض بين لبنان

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

و«اسرائيل» هو التناقض الرئيسي.. غير أن الملابسات تشير الآن الى أن التناقض الأكثر حدة المقرر الآن لمجريات الأمور، هو التناقض بين لبنان وسوريا، وليس التناقض بين لبنان و«اسرائيل».. والقضية المطروحة هي: ما العمل عندما يحجب تناقض ثانوي تناقضاً رئيسياً؟.. وكيف تتداخل التناقضات في هذا الصدد؟.. وما الآلية التي يجري بها احلال تناقضات جديدة اقل عداء محل القديمة؟

اعادة ترتيب التناقضات

ان القضية الجديدة المطروحة منذ مقتل الحريري هي أن تناقضاً ثانوياً بين سوريا ولبنان، انما أصبح له موقع على خريطة التناقضات أكثر بروزاً من التناقض الرئيسي.. ان الرجوع بالعلاقات السورية اللبنانية الى ما كانت عليه قبل مقتل الحريري، والمشاعر الملتهبة التي عبرت عنها الجنازة مسألة من الصعب تخيلها في أي مستقبل منظور.. لقد شارك في الجنازة الشعب اللبناني بأسره.. فما الوسيلة للحيلولة دون أن يطغى التناقض الثانوي على التناقض الرئيسي؟

في مصلحة من عملية بيروت؟.. ألا تشكل تبريراً لتفجير مشكلة المطالبة بسحب القوات السورية من لبنان، ودعم حجج المعارضة اللبنانية في هذا الصدد؟.. من له مصلحة في وضع نهاية لوجود قوات سورية في لبنان؟.. هل لسوريا مصلحة في ابراز مبرر قوي لعدم سحب قواتها؟

من السمات المميزة لمقتل الحريري خلق ملابسات تبرر وجود توتر بين لبنان وسوريا لا تزول آثاره بسهولة.. ان الحريري، في نظر اللبنانيين عموما، هو الذي تصدى لمهمة اعادة تعمير لبنان، وهو الذي أعاد بيروت لصيتها السابق على الحرب الأهلية.. ومع ذلك لم يكن الحريري معادياً لسوريا، وحرص على توازن حقيقي بين الطوائف اللبنانية المختلفة.. غير انه بات من المستحيل أن يكون لبنان في حالة سلام وهدوء، والمنطقة كلها تغلي.. هل من الممكن استمرار القول إن أمن لبنان وامن سوريا قضية واحدة؟.. لقد اكتسبت قوى المعارضة لانجاز تسوية أبعاداً جديدة.. بات حزب الله في قلب الاحداث.. أصبح يحتل المواقع الأمامية المعارضة للمخطط الأمريكي.

لقد كانت مرجعية التعامل بين اللبنانيين طوال الفترة السابقة هي اتفاقية الطائف.. والآن، مع استحالة الرجوع الى هذه الاتفاقية واتخاذها مرجعا للحكم، انتقل التناقض -الأكثر حدة على الساحة اللبنانية- من التناقض الرئيسي بين «اسرائيل» والعرب، الى تناقض ثانوي، ولكن أكثر حدة، بين سوريا ولبنان.

من الواضح أن الجناة ليسوا هواة، ولا هم مجموعة هامشية، بل محترفون من الدرجة الأولى.. استعانوا بمواد ناسفة بلغت قوتها 300 كيلو جرام من الديناميت.. والهدف المرسوم هو تفجير كل التناقضات في المنطقة، وعدم قصرها على تلك ذات الاثر الفعال في لبنان وحده، ان الكل يوحي بأن الجهة الجانية، دولة أو ما هو أشبه بالدولة، وليست مجرد شبكة أو منظمة.

مازالت التفسيرات شديدة التضارب حول من هو الفاعل: انه الموساد، والارهاب، و«اسرائيل»، وسوريا، وخصوم سوريا، لتبرير تهديد سوريا.. والمتهم الحقيقي في نظر أمريكا هو محور يضم سوريا وايران وحزب الله.. غير أن سوريا تحتمي بحجة أن هذا الاتهام لا مصداقية له.. وفي المقابل تحمل «اسرائيل» وأمريكا الاتهام.. بدعوى أن شارون يريد نسف عملية السلام برمتها.

غير أن القضية التي لها أسبقية على كل قضية أخرى الآن هي التزام الوسائل السلمية في الخروج من الأزمة.. بمعنى عدم انتقال التناقض الأكثر حدة الى ذلك الذي يضع لبنان في مواجهة مع سوريا.. لقد طلبت فرنسا وأمريكا تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 1559 الذي يقضي بخروج القوات السورية من لبنان.

من الملحوظ، كنقطة بداية، أن كل الأطراف تدين مصرع الحريري.. فلنمسك الخيط من بدايته.. وبدلا من أن يكون أوله هو «من المسؤول عن قتل الحريري؟».. يكون الحيلولة دون تعميق التناقض السوري-اللبناني.. والوقوف سدا في وجه العودة الى الحرب الأهلية.. أن تكون المبادرة من قبل لبنان وسوريا، لا من قبل أمريكا وفرنسا، ومصلحتهما في مصالحة بينهما.. لقد طلبت مصر بحق عدم التعجل في توجيه الاتهام، حتى يكون للأطراف القدرة على التحرك بحكمة وترو، وتجنب ردود الأفعال الانفعالية التي تهدد الجميع بكارثة محققة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية